التحيّز في الأنظمة الغربيّة لتصنيف المكتبات

د. هاني محيي الدين عطية

التحيز بين الموضوعية والقيم

قبل الخوض في الحديث عن التحيز في تصنيف العلوم في الأنظمة الغربية للمكتبات، يجب علينا أن نضع بعض المعايير للتعامل مع مفهوم «التحيز» إذ أن مدلول كلمة التحيّز منفردًا يعطي انطباعًا خاطئًا بكونه يعني «عدم الإنصاف»، أو أنه شيء ضد الموضوعية في التعبير عن الرأي، أو الفعل والأمر ليس كذلك. إن كلمة «التحيز» في حد ذاتها ليست واقعة في فراغ، ولا يمكن التعامل معها دون التعرض للمفاهيم التي نشأت عنها الأفكار، والتي منها جاء الرأي أو الفعل. أي أن الفكرة ـ والتي هي أساس التعبير عن الرأي أو الفعل ـ ما هي إلا نِتاج مجموعة من الفلسفات قوامها العقيدة، والعادات، والتقاليد الاجتماعية، والتاريخية، تبلورت في إطار معين، وحيث أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال فصل الفكرة عن الأسباب المكونة لها، فإنه أيضًا لا يمكن التحدث عن الرأي، أو الفعل الناتج عن الفكرة خارجًا عن هذا الإطار. فإذا ما اتُّهمت فكرة ما بالتحيز، فإن هذا الاتهام في حد ذاته تحيّز لفكرة مضادة تؤمن بوجهة نظر أُخرى، وليدة فلسفات مختلفة أيًا كان منبعها.

فإذا ما أخذنا على سبيل المثال: الفلسفة الغربية ونظرتها للعلوم، فسنجد أنه من جملة الأسئلة الستة المعهودة: ماذا؟ كيف؟ متى؟ أين؟ من؟ ولماذا؟ لا تعرف العلوم الغربية منها إلا الأربعة الأُولى فقط، أو

بالأصح لا تجيب إلا عن الأسئلة الأربعة الأُولى منها. فالعلوم الغربية تتعرض للأشياء من منظور: ماذا يحدث؟ وكيف يحدث؟ ومتى يحدث؟ وأين يحدث؟ ولكنها لا تحاول التعرض بأي حال من الأحوال إلى من محدِثُها؟ ولماذا تحدث؟ وفي هذا تختلف الفلسفة الإسلامية تمامًا في نظرتها للعلوم إذ أن السؤالين من؟ ولماذا؟ يمثلان حجر الأساس في الفكر الإسلامي. فبالإجابة عن السؤال من مُحدِثها؟ يكون التوحيد لله وبالإجابة عن لماذا تحدث؟ تكون خلافة الإنسان في الأرض، وكلاهما يمثل نقطة انطلاق لأي رأي أو فعل يقوم به المسلم.

وفلسفة تصنيف العلوم في هذا لا تختلف عن تلك الخاصة بفلسفة العلوم، إذ أن أي محاولة لتصنيف العلوم إنما هي محاولة لتصنيف الأفكار المتولدة من الفلسفات التي نشأت فيها تلك العلوم، فكما أن فلسفة العلوم هي نتاج الخلفية العَقَدية والاجتماعية والتاريخية والعلمية؛ فكذلك تكون فلسفة تصنيف العلوم. وتقول سارة ڤان Sarah Vann: «إن أي نظام تصنيف يعكس التقاليد التي تولدت في المجتمع»(١). الأمر الذي يجعل التحيز واردًا في تركيبة أي نظام تصنيف، وهو ما يؤكده ضياء الدين ساردار Ziauddin Sardar بقوله: «إن أي تصنيف للمعرفة يخضع للفلسفة السياسية والاجتماعية للأفراد الذين قاموا بدءًا بتصميم النظام»(٢) وهو ما يجزم بعدم «وجود أي نظام تصنيف في أي مجال يمكن أن يخلو من القيم» كما يقول إيرك دي جيرولير Eric de Grolier(٣).

وعليه، فإنه عند الحكم على أي نظام لتصنيف العلوم ـ مهما كان ـ لا يصح أن يقاس بمعيار الموضوعية فقط، وإنما يجب أن يقاس أيضًا بمعيار القيَم التي يحملها النظام.

---

(١) Sarah K. Vann, «Dewey Abroad: The Field Survey of 1964», *Library Research & Technical Services*, 11, (Winter 1967), p. 67.

(٢) Ziauddin Sardar, *Islam: Outline of Classification Scheme*, (London; Clive Bingley, 1979), p. 16.

(٣) Eric de Grolier, «Classification one Hundred Year After Dewey», *Unesco Bulletin Library*, 30 (6), 976, pp. 226-227.

فلسفة تصنيف العلوم في الأنظمة الغربية للمكتبات

عند الحديث عن التحيز في تصنيف العلوم في الأنظمة الغربية للمكتبات يجب بدءًا أن نتعرف على الفلسفة والبنية التركيبية لهذه التصانيف. ولعل أفضل تعبير نسوقه في هذا ما ذكره جيسي شيرا Jessy Shera رائد علم المكتبات المعاصر، إذ قال:

«إن نظرية تصنيف المعرفة بدءًا من أفلاطون وحتى هنري بليس Henrey Bliss اعتمدت على أربعة فرضيات أساسية: **الأولى**: أن هناك نظام عام يحكم الطبيعة، فإذا ما تم فهمه فإنه بالتأكيد سيساعد في تكوين الإطار العام لمفهوم المعرفة البشرية. **الثانية**: أن خطة التنظيم هي تسلسل هرمي بين الجنس والنوع، وبين الفئة وفروعها، كلاهما يتدرج من العام إلى الخاص، أي من أقصى درجة من العمومية إلى أقصى درجة من الخصوصية. **الثالثة**: أن مبدأ الاختلاف الذي يعمل ضمن هذا التسلسل مشتق من معنى التشابه وعدم التشابه الملازم لخصائص المواد المركبة في التصنيف. **الرابعة**: أن هذه الخصائص تعتمد بشكل أساسي على الطبيعة الفيزيائية للمواد المصنفة. وأياً كان شكلها أو وظيفتها فإن مفهومها الكلي يتبع دائماً مبادئ أرسطوطاليس للجنس والنوع والاختلاف والخاصية والحدث»(٤).

ويستطرد شيرا بقوله: «وتاريخ تصنيف المكتبات الحديث ما هو إلا عملية تطبيق لهذه الفلسفة على مواد المكتبات واحتياجات المستفيدين. ففي القرن التاسع عشر رجع توماس جيفرسون Thomas Jefferson إلى فلسفة فرنسيس بيكون Francis Bacon لتصنيف الكتب والتي تبنتها مكتبة الكونجرس. ومثله فعل ميلفيل ديوي Melvil Dewey... إذ تبنى نفس الفلسفة [حيث أخذ بفلسفة هاريس Harris وهي مقلوب فلسفة بيكون] كإطار لنظامه. وكذلك تصنيف كتر التوسعي Expansive Clasification الذي أعده تشارلز إيمي كتر Charles Ammi Cutter... فقد أظهر تأثراً كبيراً بفلسفة كل من كومت Comte وسبنسر Spencer. وهذا التصنيف

---

(٤) Shera, Jesse. «Classification as the Basis of Bibliographic Organization» in: *Bibliographic Organization* edited by Shera and Egan, Chicago: University of Chicago Press, 1951, p.p. 71-72

مدين بشكل كبير إلى فلاسفة القرن التاسع عشر، ولا سيما أنه مأخوذ بشكل مباشر من فلسفة برنيت Brunet، كما أن تأثير فلسفة بيكون ليست منه بخفية. أما بالنسبة لعمل مارتيل Martel وهانسن Hanson، فعلى الرغم من أن نيتهما كانت متجهة نحو تصنيف للكتب على أساس عملي وليس تصنيفاً للمعرفة، إلا أنهما اتبعا في إطارهما العام تصنيف كتر التوسعي. وبالطبع [كما هو معروف] فإن التصنيف العشري العالمي Universal Decimal Classifecation مأخوذ من تصنيف ديوي العشري... وبالمثل فإن أنظمة التصنيف الببليوجرافية، وإن كانت لها فلسفتها، إلا أنها لا تخرج عن نفس الإطار، فعلى سبيل المثال يدين تصنيف بليس Bliss بشكل كبير إلى فلسفة كومت Comte. وعلى الرغم من أن مصنفي هذه الأنظمة يصرون أنهم كانوا بصدد إعداد تصانيف للمواد المطبوعة وليس تنظيمًا للمعرفة، إلا أن الحقيقة التي تظل تفرض نفسها هي أنهم يوائمون الأول بالأخير مع بعض التغيير في الرموز وأشكال الفئات وتعديلات أخرى بسيطة نسبياً مما تجعل من جهودهم أكثر ملائمة لأوضاع واحتياجات المكتبات»[٥].

وعلى ما ذكر فإنه يمكن أن نستنتج أن فلسفة التصنيف في المكتبات الغربية تعتمد بشكل أو بآخر على فلاسفة القرن التاسع عشر، والتي بدورها تعتمد على الفرضيات الأربعة سابقة الذكر. وحيث أن المقال هنا لا يتسع للحديث عن كل هذه الأنظمة[٦]، فسنخص بالذكر فقط أنظمة التصنيف العالمية والأكثر شيوعاً وتداولاً في مكتبات العالم الإسلامي؛ ألا وهما: تصنيف «ديوي العشري» Dewey Decimal Classification وتصنيف مكتبة «الكونجرس» Library of Congress Classification.

أولا: تصنيف «ديوي العشري» (DDC)

يُعتبر تصنيف «ديوي العشري» من أكثر الأنظمة الغربية شهرة

---

(٥) *Ibid*, pp. 78-80.

(٦) لمعلومات أكثر تتعلق بالتصانيف الأخرى يمكن للقارئ الرجوع لكتاب «ناصر محمد السويدان» **التصنيف في المكتبات العربية**: دراسة مقارنة لأنظمة التصانيف العالمية ومدى صلاحيتها لتصنيف العلوم العربية والإسلامية ـ الرياض: دار المريخ.

وشيوعًا على مستوى العالم الغربي والإسلامي على حد سواء. ويعتمد نظام «ديوي العشري» في بِنيته على فلسفة «بيكون» Baconian philosophy المقلوبة، والتي تتضمن أن العقل له ثلاث خصائص هي: الذاكرة memory، والتخيل imagination والمنطق reason. ومن هذا المبدأ تم اشتقاق أفرع المعرفة الرئيسية في هذا النظام، ألا وهي: التاريخ والفنون والفلسفة، ولكن «دَبِليو تي هاريس» W. T. Harris الذي صمم البنية الداخلية للنظام ـ ومنه أخذ «ديوي» ـ آثر أن يقدم الفلسفة، ويؤخر التاريخ؛ إيمانًا منه بأن العقل لا يمكن أن يبدأ بالحقائق مباشرة، فجاء تصنيف «ديوي العشري» يحمل في طيّه هذه الفلسفة مقسمًا المعرفة بأكملها إلى عشرة أقسام رئيسية، فخصص الرموز من ١ إلى ٦ للعلوم، والرمزين ٧ و٨ للفنون والآداب، والرمز ٩ للتاريخ العام (أماكن وأفرادًا)، أما عن الرمز(٠) فقد خصَّصَهُ «ديوي» للمعارف العامة، وهو مالم تتطلبه فلسفة «بيكون» وإنما حكمت به الظروف على «ديوي» أن يخصص رمزًا قائمًا بذاته، وذلك للأعمال التي لا تقتصر على مبحث واحد محدد؛ مثل: الموسوعات، والصحف، والدوريات العامة، والأدلة، والكشافات، إلخ... فجاء هذا الأصل للعلوم التي تعالج المعرفة والمعلومات بصورة عامة؛ مثل: علم المعلومات، وعلم المكتبات، والصحافة، وعلم الكمبيوتر(٧)، كما أصبح التصنيف في شكله النهائي كما يلي:

000 المعارف العامة.

100 الفلسفة وعلم النفس.

200 الديانات.

300 العلوم الاجتماعية.

400 اللغات.

500 العلوم الطبيعية والرياضيات.

600 التكنولوجيا (العلوم التطبيقية).

---

(٧) John P. Comaromi and M. P. Satija, *Dewey Decimal Classification: History and Current Status* (New York: Envoy Press, 1988).

700 الفنون.

800 الآداب.

900 الجغرافيا والتاريخ.

ويعتمد نظام «ديوي» في بنيته على إمكانية التفريع لكل مبحث أو موضوع مهما كان مجاله إلى عشرة فروع أُخرى، حتى ولو لم تستخدم هذه الفروع في كل حالة، أو زاد فرع العلم عنها. كما خص النظام بثلاثة مستويات رئيسية، كما يظهر من الرمز الثلاثي المستعمل. فالرمز الذي يدل على المستوى الأول هو الأول من اليسار في الأرقام الثلاثة، والرمز الذي يدل على المستوى الثاني هو الثاني فيها، والذي يدل على المستوى الثالث هو الثالث. وبالرغم من أن القائمة أعلاه تمثل المستوى الأول فقط إلا أن التعبير يتم بثلاثة أرقام، ولكن الرقم الذي يدل على الرمز المعنى هو واحد فقط. أما مستويات التخصيص التي تزيد على ثلاثة، فقد رمز لها «ديوي» بأرقام عشرية تلي الرمز الثلاثي، ومنها استقى النظام اسمه.

أما عن التحيز في نظام «ديوي» فيظهر بوضوح في كل من المستويين الثاني والثالث، وإن كان هناك من يدافع عن أسباب هذا التحيز ويعزوها إلى ظروف تاريخية، ومن هؤلاء المدافعين نستشهد بما يسرده «كوماروميِ» و«ساتيجا» Comaromi and Satija في قولهما:

«إن نظام «ديوي العشري» هو نظام مكتبي واقعي تم تصميمه في عام ١٨٧٣ كنظام عملي، ليحل مشاكل فورية واجهتها المكتبات الأمريكية بصفة عامة في تلك الأيام، وبصفة خاصة [فقد تم تصميمه] لوضع نظام دائم يقوم بتنظيم مكتبة كلية أمهرست Amherst College اقتصاديًا ومنهجيًا. ولقد اعتمد النظام في أغلبه على الإنتاج الفكري المتاح في كلية أمهرست ومكتبات كل من منطقتي نيويورك New York ونيوانجلند New England. ولقد قُدر لهذا النظام العام العالمي أن يحظى بمؤيدين له في وقت قصير، وأن يجد له مستخدمين في شتى أنحاء العالم. كما صاحب شهرتَه واستعمالَه الدولي نقدًا متزايدًا مرجعه أن الموضوعات الأمريكية قد حظيت باهتمام كبير، مقارنة مع مثيلاتها من الموضوعات الأُخرى، وقد أُطلق على هذا التحيز اختصارا لفظ (WASP) من كلمة «واسب».

وهي اختصار عبارة White Anglo-Saxon Protestant من رجل أبيض من أصل أنجلوساكسوني. إن هذا التحيّز واقع فعلاً ولكنه لم يحدث لأي سبب مقصود وإنما منشؤه طبيعي، وبعض هذه الأسباب مرجعه تاريخي إذا ما أخذنا في الاعتبار أن تصنيف «ديوي العشري» قد أُسس أصلاً معتمِدًا على الإنتاج الفكري المتاح [في الولايات المتحدة] في ذلك الوقت، فلا عجب إذًا أن لا تجد الموضوعات غير الأمريكية تمثيلاً ملائمًا لها في النظام[٨]. .»

وعلى الرغم من أن الأسباب التي يسردها «كوماروومي» و«ساتيچا» تبدو منطقية، إلا أن التحيز المقصود والذي يجهلانه أو يتجاهلانه هو ذاك النابع من الفكر الغربي ونظرته للعلوم، بحيث أصبح لا يرى أي شيء إلا بمنظاره، وهذا ما سنتعرض له بالحديث في مكانه إن شاء الله.

ثانيًا: تصنيف مكتبة الكونجرس (LCC)

تصنيف «مكتبة الكونجرس» هو ثاني التصانيف شهرة وشيوعًا بعد ديوي ولقد تم تصميمه أساسًا كنظام ذرائعي لسد حاجة مكتبة الكونجرس فقط، دون الأخذ في الاعتبار حتى حاجات المكتبات الأمريكية الأُخرى. ولقد روعى عند تصميم النظام أن يغطى كلاً من التوسع المحتمل في حجم المحتوى الفكري للمكتبة، وتفاعُل النظام مع موظفي المكتبة، وخدمة طبيعة وعادات مرتادي المكتبة، ومنح حرية التحرك بين أرفف الكتب للباحثين الجادين[٩].

وانطلاقًا من هذا التخصيص في الهدف لم يكن لتصنيف «مكتبة الكونجرس» أي فلسفة حقيقية لتصنيف المعرفة، وإنما هو بالأخص محاولة لتنظيم المكتبة من الداخل، وتلبية احتياجاتها المستقبلية. ويذكر إيمورث J.P. Immorth أنه على الرغم من أن تصنيف مكتبة الكونجرس لا يقابل المستلزمات التي ترقى به لتحقيق أي نظرية تصنيف أو مكونات نظام

---

(٨) *Ibid*, p. 41.

(٩) Lois Mai Chan, *Immroth's Guide to the Library of Congress Classification.*

تصنيف؛ إلا أن لديه بعض المبادئ النظرية المقبولة، والتي ترمي إلى مواجهة المستقبل [لتطور المكتبة]. وفي هذا الصدد تعتبر هذه المبادئ أفضل بكثير من تلك الموجودة في تصنيف «ديوي العشري»[١٠]. لقد مرت المكتبة بعدة محاولات للتنظيم تم خلالها التعامل مع أنظمة متعددة حتى انتقلت المكتبة إلى مبناها الجديد، الأمر الذي ترتب بموجبه العمل على إيجاد نظام يتيح للمكتبة الاكتفاء والثبات. وقد تقرر تشكيل لجنة تقوم بدراسة الأنظمة الأُخرى المستخدمة قبل الشروع في إنشاء أي نظام جديد. وفي إطار هذه الدراسة كان هناك ثلاثة اختيارات رئيسية: تصنيف «ديوي العشري»، والتصنيف التوسعي «لشارلز إيمي كَتَر» Charles Ammi Cutter's Expansive Classification ونظام «أوتو هارتْفِج» Otto Hartwig الألماني المسمى Halle Schema. وبعد دراسة كل من هذه الأنظمة تم استبعاد تصنيف «ديوي»، وذلك لرفضه أن تجري «مكتبة الكونجرس» أي تعديلات رئيسية في نظامه، كما أن النظام انتُقِد بأنه مقيد برموزه، والتي وضعت كأسُس للنظام وليس لخدمته. وقد استُبعد أيضًا نظام «هارتْفِج» باعتباره متحيزًا للفكر الفلسفي الألماني، وعليه؛ فلم يبق إلا تصنيف «كَتَر» التوسعي الذي أعطي الاهتمام المباشر، ولا سيما أن «كَتَر» كان متعاونًا جدًا في إجراء أية تعديلات على تصنيفه[١١].

أما عن فلسفة «كَتَر» في تصنيف العلوم، فهي تنطلق من مبدأ تقسيم المعرفة إلى علوم اجتماعية وإنسانية وعلوم طبيعية وتكنولوجية، ثم قدم فئة الأعمال الشاملة التي تخدم العلوم بأكملها شأنه شأن «ديوي» في تصنيفه؛ إلا أنه فصَل الببليوغرافيات، وعلم المكتبات عن الأعمال الشاملة، وخصه بَفرْع وحده ووضعه في آخر التصنيف، كما أنه استعمل الحروف الإنجليزية كرموز بدلاً من الأرقام، وخص كل علم بحرف، فجاء التصنيف في شكله العام كما يلي:

---

(١٠) J. P. Immorth in Arthur Maltby, (ed.) *Classification in the 1970's: A Second Look,* Rev. ed., (London: Bingley, 1976), p. 89.

(١١) Lois Mai Chan, *Op. cit.* p. 20.

A ـ الأعمال الشاملة.

B – P ـ العلوم الاجتماعية والإنسانية.

Q – V ـ العلوم الطبيعية والتكنولوجيا.

Z ـ الببليوغرافيا وعلم المكتبات.

ومنطَلق فلسفة «كَتَر» أن يخصّص لكل علم حرفًا حتى يسمح لهذا العلم بالتوسع دون قيود، ومنه أخذ النظام اسمه. ولقد ناسب هذا النظام «مكتبة الكونجرس» حيث أنَّ عملية التصنيف في المكتبة كانت ستتم بإسناد الأمر إلى المكتبيين المتخصصين في كل فرع حسْب ما يتواجد لديهم من إنتاج فكري، وقد قدر أن أقسامًا مثل: التاريخ، والعلوم السياسية والاجتماعية، قد يكون لها محتوى فكري أكثر من مثيلاتها، إلا أنه عند الشروع في التصنيف وجد «جيمس هانسون James Hanson» ـ رئيس قسم الفهرسة في المكتبة ـ أن عملية التصنيف لا يمكن أن تتم بالاعتماد على الحروف فقط، بل بمزيج من الحروف والأرقام معًا، وهو ما آل إليه تصنيف «مكتبة الكونجرس» الحالي، مع تغيير في بعض مواضع العلوم كما تُرِك كل حرْفٍ من الأحرف I O W X Y خالية لاستخدامها مستقبلاً(١٢).

أما عن التحيز في تصنيف «مكتبة الكونجرس» فقد يكون من الصعب لمسه بشكل مباشر، ولا سيما أن التصنيف ليس له أي فلسفة حقيقية أكثر من ترتيب كتب «مكتبة الكونجرس» ولكن الحقيقة ليست بتلك البراءة الظاهرة، بل تكمن في أبعد من هذا؛ وهو ما يرويه لنا «ديڤيد كايزر ـ David Kaiser» عن الخلفية الحقيقية التي صاحبت مهنة المكتبات في الولايات المتحدة فيقول:

«إن مهنة المكتبات جاءت إلى الوجود مصحوبة، أو مرتبطة، بحركة التبشير للكنائس المسيحية في الولايات المتحدة. فقد أُسست المستعمرات البريطانية في أمريكا الشمالية من قِبَل باحثين متحمسين للحرية الدينية. وخاصة في الفترة المسماة «بالصحوة الجديدة New Awakening» في أوائل

---

(١٢) *Ibid*, pp. 38-39.

القرن التاسع عشر. وبانتقال الحركة الرومانسية إلى البلاد (أمريكا) من بريطانيا وفرنسا في مطلع القرن التاسع عشر، أُضيف إلى اهتمامات التبشير - والتي كانت تهدف إلى بث مفهوم احترام راحة الآخرين الموجود في تقاليد المسيحية الأصلية - اهتمام آخر يومئ إلى بث روح الإيثار، وهو الأمر الذي أعطى حافزًا أكثر لتكثيف الجهود التبشيرية في كل من داخل وخارج الكنائس. [ومن هنا] نشأت كلٌّ من جمعية الكتاب المقدس الأمريكية The American Bible Society في عام ١٨٢٦، وجمعية الرسالة الأمريكية The American Tract Society في عام ١٨١٧، والاتحاد الأمريكي لمدارس الأحد The American Sunday School Union في عام ١٨٢٥. وكان قد نشأ آنذاك عدد من الفِرق التبشيرية في الخارج، أولها كان التبليغيون المسيحيون Congregationalists في عام ١٨١٠ ثم الباپتستيون Baptists في عام ١٨١٤ وآخرون جاءوا من بعدهم كان هدفهم نشر عقيدتهم، وحَمل الإنجيل المسيحي ليس فقط عبر الولايات المتحدة بل عبر العالم كله.

ولعله يمكن القول بشكل أو بآخر إن كل «الآباء المؤسسين Founding Fathers» لمهنة المكتبات الأمريكية كانوا من الناشئين في هذه التقاليد. فـ «روبن جيلد Reuben Guild» [على سبيل المثال] كان قد فكر جدِّيًا في الانضمام لخدمة العقيدة الباپتسوية قبل أن يصبح مكتبيًّا. وآخرون ممن أصبحوا مكتبيين كانوا قد تلقوا تعليمًا دينيًّا لكي يشغلوا مناصب دينية، بل إن بعضهم قد وصل لمنصب القسيس. فالمكتبيون القدامى مثل «شارلز كوفن چيوت» Charles Coffin Jewett «وجون لانجدون سيبلي John Langdon Sibley» و«صموئيل سوِت جرين» Samuel Swett Green و«شارلز أيمي كَتَر» Charles Ammi Cutter وأخيرًا «إرنست كوشنج ريتشاردسون - Ernest Cushing Richardson» جميعهم قد تمرنوا في المدارس اللاهوتية قبل أن يَهبوا حياتهم للعمل في مهنة المكتبات. في واقع الأمر لقد كانت مهنة المكتبات في نظر الكثير منهم، هي نوع من «المهن الدينية Religious Vocations» وبالتالي تصلح أن تكون لهم بديلاً عن الالتزام بالعمل الكنَسي. ولقد استمر مثل هذا الشعور بقوة هذه التأثيرات مع اكتمال (تطور) مهنة المكتبات، وذلك حتى تم إنشاء الاتحاد

الأمريكي للمكتبات American Library Association عام ١٨٧٦ وقد تحدث كثير من المكتبيين خلال العقود التي تلت [تأسيس الاتحاد] عن «إحضار مكتبة الإنجيل bringing the library gospel» إلى البلدان والقرى الأمريكية التي لم تسمع عنه من قبل»(١٣).

ومن هذا نستخلص أن عملية تصنيف العلوم ليست ذاك العمل المتواضع الذي يكمن في ترتيب الكتب على أرفف المكتبة، بل هو فلسفة عميقة قوامها العقيدة والعادات والتقاليد، وحيث أن هذه الأشياء أصيلة، فلا يمكن إذن أن نتوقع من أي نظام تصنيف يعبر بصدق عن فكر مجتمعه أن يخلو من التحيز. ومثل هذا التحيز طبيعي، ولا يمكن أن يلام عليه أحد، لأنه تحيز نابع من الأصول العقائدية والتاريخية والاجتماعية للمجتمع الذي أسس التصنيف أساسًا لمقابلة إنتاجه الفكري. ولعل هذا هو ما كان يشير إليه «كوماروامي» «وساتيچا» ويعزوان وجوده إلى الظروف التاريخية المحيطة بنشأة تصنيف «ديوي». وهو نفس الأمر الذي جعل «مكتبة الكونجرس» ترفض نظام «هارتْفِج» باعتباره نظامًا متحيزًا في بنيته للفكر الألماني بينما لم يتم نفس التعقيب على نظام «ديوي» الذي يحمل في طيّه تحيزًا واضحًا للفكر الفلسفي الأمريكي. ولنفس السبب فقد رفض «جيمس دف براون James Duff Brown» من قبل تصنيف «ديوي العشري» لأنه أُعد من وجهة نظر أنجلوسكسونية ولا يرضي البريطانيين، وعليه قام براون بإعداد تصنيفه الموضوعي Subject Classification ليمثل بصدق الفكر البريطاني(١٤).

أشار شنيدرSchneider في اتهامه للتصنيف العشري العالمي UDC بأنه يحمل في طيّه تحيزاً محلياً وأخطاءً منطقية تظهر جلياً في قوائمه

---

(١٣) David Kaser, «Asa Don Dinckon: A Librarian of His Times», in *Library Education in Pakistan, Past Present and Future,* edited by Sajjad ur Rahman, Abdus Sattar Chaudhry & Afzal Haq Qarshi, pp. 4-5.

(١٤) Sayers, W.C.B. *A manuel of Classification for librarians and Bibliographers,* 3rd. ed., rev. London. Grafton, 1955, p. 176.

الجغرافية والتي على الرغم من أنه تم تطويرها في بروكسل. إلا أنها ظلت تعتمد على تصنيف ديوي. وهو يشير إلى القصور الواضح في أقسام الفلسفة والدين واللغات والأداب وإن كان يرجعه في الأساس إلى منشئه الأصلي، وبدرجة أقل إلى التحيز الأمريكي(١٥). فإذا كان لكل هذه الأنظمة. وهي تشترك في العقيدة والرؤية الحضارية الواحدة أن تتهم كل منها الأخرى بالتحيز فكيف يمكن لعقيدة أخرى مخالفة أن تجد بغيتها في أي من هذه الأنظمة؟

لقد نقد المكتبيون السوفييت نظام تصنيف ديوي العشري باعتباره مبنياً على الثقافة الأمريكية في القرن التاسع عشر ومعبِّرًا عنها. ومن ثَم بنوا تصنيفاً ينطلق من الفلسفة الماركسية اللينينية التي تعتبر أن تصنيف المعرفة البشرية يجب أن يكون بنفس الطريقة التي توزع بها الأشياء المادية في المجتمع الذي يؤمن بالعدالة الاقتصادية(١٦).

ولنفس السبب أصدر المكتبيون الصينيون تصنيفهم بعد أن ساورهم الاعتقاد بأن التصانيف الغربية قد اعتمدت بشكل كبير على فلسفة بيكون وكومت فأصدروا تصنيفاً اشتراكياً يجمع الفكر الماركسي واللينيني والماوتسيجي في موضع واحد(١٧).

إن التحيز واقع لا مجال للشك فيه في أنظمة التصنيف الغربية وذلك باعتراف المكتبيين الغربيين أنفسهم، ولكن التحيز الذي نقصده في هذا المقال هو ذاك التحيز ذو الصبغة التبشيرية والتي أشار إليها «ديڤيد كايزر» في توضيحه للخلفية العَقَدية للمكتبيين الأمريكيين والتي صاحبتهم حتى تأسيس اتحاد المكتبات الأمريكي. ولا يمكن بالطبع أن نتصور أن يكون

---

(١٥) Greorge Schneider. *Theory and History of Bibliography*. Trans. by Rosph Shaw. New York: Columbia University Press, 1934, p. 220.

(١٦) Peter biskup. *Marx, Leninism and Soviet Classification*. -Australian library Journal. - March 1963. - pp; 28-34.

(١٧) liu-Lengyel, Hong-ying. *The Development and Use of the Chinese Classification System*. International Library Review, 18, 1987, pp. 47-60.

هناك أفراد ينظرون إلى مهنة المكتبات على أنها مهمة دينية دون أن يتركوا بصمات واضحة في تصنيفاتهم المحلية والعالمية على حد سواء.

التحيز التبشيري في تصنيفَي «ديوي»، «ومكتبة الكونجرس»

يأخذ التحيز التبشيري في تصنيفَي ديوي ومكتبة الكونجرس ثلاثة أشكال رئيسية يمكن التعبير عنها بالتحيز المنهجي والتحيز اللفظي والتحيز الديني وسيتم التعرض فيما يلي بالتفصيل لكل من هذه الأنواع.

أولاً: التحيز المنهجي

يُقصد بالتحيز المنهجي تلك المغالطات المتعمَّدة في الكيفية التي تم بها تناول الموضوعات داخل التصنيف. وسنأخذ على سبيل المثال لا الحصر نماذج من فروع المعرفة المختلفة وهي الفلسفة والديانات واللغات والأدب لتمثل هذا الشكل من التحيز.

الفلسفة

خصص «ديوي في تصنيفه الرمز 180 للفلسفة الشرقية والفلسفة اليونانية والفلسفة الغربية في العصور الوسطى، أما تحت الرمز 181 فقد حشر ديوي فلسفات الديانات كلها (باستثناء المسيحية) جاءت كلها موزعة بين الرمزين الفرعيين 181,1 والرمز 181,9 بينما احتلت الفلسفة اليونانية والمسيحية مساحة واسعة؛ شغلت ما بين الرمز 182 إلى الرمز 189 من التخصيص في النظام. كما جاءت الفلسفة الغربية الحديثة منفردة. بالرموز 190 - 199 فكان التوزيع بالشكل التالي:

180 الفلسفة القديمة وفلسفة العصور الوسطى والفلسفة الشرقية.

181 الفلسفة الشرقية.

182 الفلسفة اليونانية قبل سقراط.

183 الفلسفة السفسطائية والسقراطية.

184 الفلسفة الأفلاطونية.

185 الفلسفة الأَرِسطية.

186 الفلسفة الشكية والأفلاطونية المحدَثة.

187 الفلسفة الأبيقورية.

188 الفلسفة الرُّواقية.

189 فلسفة العصور الوسطى الغربية.

190 الفلسفة المعاصرة الحديثة.

191 الفلسفة المعاصرة في الولايات المتحدة وكندا.

192 الفلسفة المعاصرة في الجزر البريطانية.

193 الفلسفة المعاصرة في ألمانيا والنمسا.

194 الفلسفة المعاصرة في فرنسا.

195 الفلسفة المعاصرة في إيطاليا.

196 الفلسفة المعاصرة في أسبانيا والبرتغال.

197 الفلسفة المعاصرة في روسيا وفنلندا.

198 الفلسفة المعاصرة في اسكندِناڤيا.

199 الفلسفة المعاصرة في مناطق أُخرى.

ويرى هنا مقدار التحيز المخل بالمنهجية في توزيع أفرع المعرفة بأن تأخذ الفلسفة اليونانية كل هذه العناية، بينما تُحشر كل من الفلسفة الهندية، والفلسفة الصينية، والفلسفة الإسلامية وغيرها في حيز ضيق. أما تحت الفلسفة المعاصرة فلا ذكر لأيٍّ من فلسفات هذه الديانات على الإطلاق وإنما أكتُفي بذكر كلمة أُخرى.

أما في تصنيف «مكتبة الكونجرس» فقد جاءت الفلسفة تحت الرمز B وأخذت فلسفة العصر الحديث الرمز B 790 - 5739 حيث قسمت الفلسفات حسْب التوزيع الجغرافي للقارات، فكان نصيب كل منها ما يلي:

B 879,5 - 1019.82 أمريكا الشمالية.

B 1025 - 1029 أمريكا الوسطى.

B 1030 - 1084 أمريكا الجنوبية.

B 1111 - 4871 أوروبا الغربية.

B 4670 - 4871 أوروبا الشمالية.

B 5000 - 5289 آسيا.

B 5300 - 5679 أفريقيا.

B 5700 - 5704 أستراليا.

وبمقارنة كل من المساحة التي احتلتها الفلسفة الغربية في «ديوي» و«الكونجرس» مع تلك المساحة التي أعطيت لفلسفات دول العام الأُخرى يمكن التعرف على مدى التحيز الوارد في كِلا النظامين.

الديانات

جاءت الديانات في تصنيف «ديوي العشري» تحت الرمز290 - 200 احتلت فيها المسيحية الرموز من 200 - 280، بينما جاءت ديانات العالم الأُخرى، والديانة المقارنة، تحت الرمز 290، وقد كان التوزيع كالتالي:

200 الديانات.

210 الديانات الطبيعية.

220 الكتاب المقدس.

230 الديانة المسيحية.

240 الأخلاق المسيحية والعبادة.

250 الكنيسة المحلية.

260 اللاهوت الاجتماعي والديني.

270 تاريخ الكنيسة وجغرافيتها.

280 الطوائف والفرق المسيحية.

290 الديانات الأُخرى والديانة المقارنة.

ولا يختلف تصنيف «مكتبة الكونجرس» عن «ديوي» في شيء عن هذا إذ أنه من جملة ثلاثة مجلدات، خصصت للديانات في التصنيف، شغلت المسيحية مجلدين، بينما جاءت ديانات العالم الأُخرى كلها في المجلد الثالث كان فيها حجم التفريعات المتخصصة ما يلي:

BM 1 - 900 اليهودية.

BP 1 - 610 الإسلام.

9800 - 1 BA البوذية.

1725 - 1 BR المسيحية.

12970 - 1 BR الكتاب المقدس والتفاسير.

1480 - 1 BR العقيدة اللاهوتية ورد مطاعن.

5099 - 1 BR اللاهوتية العلمية.

999 - 1 BR الطوائف الدينية والفرق المسيحية.

ويلاحظ هنا مدى التحيز الوارد للديانة المسيحية، والتي شغلت ٩٠ ٪ من التفريعات، بينما وضعت ديانات أعرق من المسيحية في ١٠ ٪ فقط في تصنيف «ديوي». وبالنظر إلى الأرقام الواردة في تصنيف «الكونجرس» يمكن ببساطة أيضًا أن نتعرف على مدى المساحة التي شغلتها المسيحية مقارنة مع الديانات الأُخرى. فمن جملة ٥٧٠ صفحة شغلتها المسيحية كان نصيب البوذية ١٠١ صفحة، واليهودية ٤٣ صفحة، والإسلام ٣٥ صفحة.

اللغات والآداب

خصص «ديوي» في تصنيفه للغات الرمز ٤٠٠، كما خصص للآداب الرمز ٨٠٠، وقد جاءت التفريعات تحت كل منهما كما يلي:

400 اللغة.
410 علم اللغة.
420 اللغة الانجليزية (القديمة والحديثة).
230 اللغات الألمانية.
440 اللغات الرومانسية (الفرنسية).
450 اللغات الإيطالية والرومانية.
460 اللغات الأسبانية والبرتغالية.
470 اللغات اللاتينية.
480 اللغات اليونانية.
490 اللغات الأُخرى.

800 الأدب.
810 الأدب الانجليزي والأمريكي.
820 الأدب الانجليزي القديم والحديث.
830 أدب اللغات الألمانية.
840 أدب اللغات الرومانسية.
850 أدب اللغات الإيطالية والرومانية.
860 أدب اللغات الأسبانية والبرتغالية.
870 أدب اللغات اللاتينية.
880 أدب اللغات اليونانية.
890 أدب اللغات الأُخرى.

ولا يحتاج المرء الكثير من الوقت لكي يرى الكيفية التي تعامل بها «ديوي» مع اللغات والأدب الأوروبي، وتلك التي تعامل بها مع لغات وآداب الشعوب الأُخرى. وللمرء أن يتخيل كيف يمكن أن يتم تصنيف

آداب لغات عريقة مثل الأدب الصيني والأدب الروسي والأدب الفارسي، والأدب العربي بشتى مراحله الجاهلي والإسلامي والحديث في مثل هذا الحيز الضيق؟!

وتصنيف «مكتبة الكونجرس» وإن كان لا يظهر فيه هذا التحيز الواضح، إلا أنه لا يخلو من ملاحظات، ويكفي فقط أن نشير إلى حجم التفريعات تحت كلٍّ من الرموز المخصصة لأنواع اللغة والأدب. فتحت الرمز PB حيث وردت اللغات الحديثة يظهر ما يلي:

5498 ـ PC1 اللغات الرومانية.

5929 ـ PD1 اللغات الألمانية الشمالية.

5999 ـ PF1 اللغات الألمانية الغربية.

3729 ـ PE1 اللغة الانجليزية.

9665 ـ PG1 اللغات الألبانية.

5490 ـ PH1 اللغات الفنلندية.

9293 ـ PJ1 اللغات الشرقية.

9601 ـ PK1 اللغات الهندوإيرانية.

8839 ـ PL1 لغات شرق آسيا وأفريقيا.

وبحساب ما شغلته كل من اللغات وآدابها في كل من التفريعات، نجد أنه لا يوجد وجه للمقارنة بين ما شغلته كل من اللغات الانجليزية، أو الفرنسية، أو الألمانية منفردة، مع ما جاء في التفريعات للغات الشرقية والهندوإيرانية، ولا سيما ذلك الإهمال الذي تم به التعامل مع ما يزيد على نحو سبعين لغة من لغات شرق آسيا وأفريقيا.

وبالطبع لا يمكن أن نعزو مثل هذا التحيز إلى الظروف التاريخية، وما كان يوجد من إنتاج فكري في المكتبات الأمريكية في ذلك الوقت. لأن التحيز هنا تحيز منهجي في تقسيمات المعرفة، وليس حجم الإنتاج فقط. إن أي منهج لتصنيف المعرفة لابد وأن يكون مبنيًا على مفاهيم أساسية تأخذ في اعتبارها الاختلاف والتماثل بين أفرع المعرفة المختلفة.

وهو ما يمنع أن يتم التعامل مع أديان، أو لغات، أو آداب أو فلسفات ما بكل تفصيلاتها، بينما يتم الحديث عن لغات مختلفة لا تقل أهمية عنها بمجرد الإشارة إليها بكلمة (أُخرى).

ثانيًا: التحيز اللفظي

يقصد بالتحيز اللفظي: «تلك المصطلحات والألفاظ التي تمثل طبيعة التكوين الفكري لمصممي أنظمة التصنيف». ويظهر التحيز اللفظي في كثير من المواضع على جميع مستويات التصنيف، وحيث أننا هنا لسنا بصدد حصر تلك الألفاظ، فسيتم الاكتفاء فقط بنماذج نخص منها ألفاظًا وردت في كل من تصنيفي «ديوي» «والكونجرس» تحت موضوع «الإسلام» مما يوحي بأنها مصطلحات إسلامية، وما هي إلا ألفاظ ذات مفاهيم مسيحية، كان يمكن الاستعانة بأُخرى تمثل تلك المفاهيم الإسلامية، وتمثل بصدق طبيعة الفكر الإسلامي، طالما أنها أدرجت تحت الإسلام، وفيما يلي نذكر نموذجًا من هذه الألفاظ، مع شرح قام به الكاتب لتوضيح المفهوم المسيحي للفظ، فمن أمثلة ما ورد في تصنيف «ديوي» ما يلي:

Devils 297 - 216

وتعني «الأرواح الشريرة»، وهو مفهوم مسيحي يشير إلى الروح الشريرة المتجسدة في شكل الشيطان، ويمثل في العقيدة المسيحية كملك الجحيم، واللفظ المعبر الصحيح للفكر الإسلامي هو: «الشيطان» Satan

Divination 297. 32

وتعني «الكهانة» وهو لفظ يدل على الممارسة لأفعال يقصد بها معرفة أو رؤية حوادث المستقبل، أو اكتشاف أسرار خفية، عن طريق الاستعانة بقوى خارج الإدراك البشري. واللفظ المعبر الصحيح للفكر الإسلامي هو «السحر» Magic

أما من أمثلة ما جاء من التحيز اللفظي في تصنيف مكتبة الكونجرس فهو:

BP 133.7 M35 Saint

ويعني «القديس» وهو اصطلاح يطلق في المسيحية على الأفراد الذين يعيشون حياة خيرة، ويكونون على اتصال وجودي بالرب. واللفظ المعبر الصحيح للفكر الإسلامي هو «الصدِّيق» Veraciaus.

BP 166.76 Salvation

ويعني الخلاص وهو مفهوم مسيحي مؤداه أن المسيح سيخلص يوم القيامة من يؤمن به كابن للإله وَمَضَحٍّ في سبيل رذائل البشرية. ومثل هذا المفهوم لا يوجد في الإسلام.

BP 1637 Blasphemy

ويعني «التأله» وهو لفظ قد يستعمل في المسيحية للدلالة على ادعاء المرء حقوق الإله وصفاته، أو التهكم الفاضح ضد العادات والقيم المقدسة. واللفظ المعبر في الإسلام هو «الكفر»atheism.

BP 1675 Heresy

ويعني «الهرطقة» وهو لفظ يطلق على التحدث ضد الكنيسة،

إن خطورة مثل هذه الألفاظ واستمرار تداولها؛ هي أن تصبح مفاهيم يصعب إخراجها من عقولنا بعد أن يصبح وجودها حقيقيًا، ويذكر «مالك بن نبي» في كتابه **مشكلة الثقافة**:

«إن الشيء لا يعد موجودًا بالنسبة لشعورنا إلا عندما يلد فكرة تصبح برهانًا على وجوده في عقلنا فكل ما ينضوي داخليًا أو خارجيًا في منطقة الضوء التي تحوط جزيرتنا يصبح (فكرة) تدخل إلى مجال معرفتنا؛ أي إلى شعورنا، ولكنه عندما يتم دخوله في هذه المنطقة في الضوء يصبح حضوره وجودًا حقيقيًا، وحينئذ تنكشف حقيقته، ويوضع بالتالي اسم يطلق عليه. تلك هي عملية الإدراك عندما نريد أن نفهم الأشياء من الوجهة النفسية، أعني من وجهة نظر الفرد، أما إذا أردنا أن نتناولها من وجهة اجتماعية، فسيكون علينا أن نحدث تفرقة بين الواقع الاجتماعي الذي لم يحدد أو يصنف، وبين الواقع الاجتماعي المدرك المتحقق؛ أي الواقع المترجم إلى مفهوم المدرك على أنه موضوع للدراسة والمعرفة، إن لكلتا العمليتين وجوهًا متماثلة. فتحقيق الشيء يتم بواسطة

الإدراك الشعوري، ثم يترجم إلى (اسم)، وتحقيق الواقع الاجتماعي يتم بواسطة التصنيف، ثم يترجم إلى (مفهوم). والاسم بهذا الوضع يعد إذن: أول درجة من درجات المعرفة، وأول خطوة نخطوها نحو العلم. فإذا سميت (شيئًا)، فمعنى ذلك أنك تستخرج منه فكرة معينة؛ أي أنك تؤدي أول عمل من أعمال المعرفة بالنسبة لذلك الشيء»[١٨].

ويتبين هنا أن المخطَّط التبشيري؛ مخطَّط لا يقل في خطورته عن الغزو الثقافي الإعلامي والتعليمي؛ الذي يعتمد على أهداف طويلة الأمد. فأنظمة التصنيف العربية الغربية تحمل في طياتها ألفاظًا تعتمد بمرور الزمن على تغيير مفاهيم راسخة في العقول بمفاهيم أُخرى تأتي في صورة مصطلحات تظهر على بطاقات المكتبة كرؤوس موضوعات، وتقسيمات للموضوعات على الأرفف، فالقضية إذن ليست مجرد ترتيب لكتب؛ بل تحريف للعقيدة، وتبديل للثقافة التي نشأ عليها المجتمع.

ثالثًا: التحيز الديني

ويعتبر التحيز الديني أخطر أشكال التحيز على الإطلاق؛ لأن منشأه تعمدٌ مغلوط لتشويه صور الشعوب الأُخرى بعمومها والديانات بخصوصها، وحتى نكون أقرب للتمثيل سنأخذ نموذج الإسلام في تصنيف «ديوي العشري».

فمن أمثلة ما يمكن الإشارة إليه في نظام ديوي هو استعماله تحت الرمز 297 صيغة (الإسلام والديانات المشتقة منه) وهو بلا شك صياغة خطيرة ومغرضة تهدف إلى إعطاء انطباع أن الإسلام ليس دينًا واحدًا بل هو أديان شتى. كما أدرج تحت التفريعات 297.87 و297.9 ما يلي:

297,8	الفرق الإسلامية وحركات الإصلاح.
81	السنة.
811	الحنفية.
812	الشافعية.
813	المالكية.

(١٨) مالك بن نبي، **مشكلة الثقافة**، ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، الطبعة الرابعة ١٩٨٤ ص ٢٢ ـ ٢١.

814	الحنبلية والوهابية.
82	الشيعة.
821	الاثنا عشرية.
822	الإسماعيلية.
823	الزيدية.
83	فرق أخرى.
831	القدرية.
832	المرجئة.
85	الدروز.
86	الحركة الأحمدية.
87	حركة المسلمين السود.
297,9	الديانات الناشئة في الإسلام.
92	البابية.
93	العقيدة البهائية.

وكما يلحظ هنا الخلط الكبير الذي قام به ديوي، والمزج بين حركات إصلاح ومذاهب، وبين فرق وعقائد، وإهماله فرقًا إسلامية كثيرة وهامة، مثل المعتزلة، والخوارج، وتركيزه على عقائد ليست من الإسلام في شيء مثل البهائية.

ولا يختلف تصنيف «الكونجرس» في معاملته للفرق الإسلامية عن «ديوي» باستثناء تناوله للفرق الإسلامية بشكل أكثر تخصيصًا ولكن خطورته الحقيقية تكمن في تناوله لبعض المفاهيم، والتي تخالف تمامًا شريعة الإسلام قلبًا وقالبًا، وإنما هي وليدة الكيان الأمريكي المبني على التمييز العنصري، ومن أمثلة هذا نجد تحت الرمز 62 حيث يذكر: 62 ـ يتم التفريع حسب العرق race الأقليات، ethnic group، القبيلة tribe B 56، السود Blacks الأفروأمريكيون Afroamericans، أنظر «المسلمون السود» BP 221

ولا يمكن بالطبع أن يمر مثل هذا الأمر على أي مسلم، دون أن يتبين أن الجاهلية، التي جبّها الإسلام حال وصوله، قد ألحقت به. أما أخطر أشكال التحيز الديني في تصنيف «الكونجرس» فهو الذي يظهر بجلاء فيما يلي:

BP 190.5 العرب في الإسلام Arabs in Islam

الإسلام كدين للعرب Islam as an Arab religion

ويلاحظ هنا صيغة (الإسلام كدين للعرب)، وهي بلاشك صياغة مقصود بها نفي مفهوم العالمية عن الإسلام، وقصره على العرب فقط.

بين التحيز والتبعية

مما سبق نجد بالدليل الدامغ، أن أنظمة التصنيف الغربية لاتخلو من التحيز، ولكن المهم في الأمر، هو أن المكتبيين في العالم العربي والإسلامي على حد سواء (باستثناء قلة منهم)، قد تغافلوا عن مثل هذا التحيز، وركنوا إلى التبعية المفرطة، فتبنَّوا هذه الأنظمة، دون اعتبار ما إذا كانت تصلح لتمثيل الموضوعات الإسلامية أو حتى المحلية أم لا؟ بل إن الحقيقة الواقعة هي أن كلًّا من تصنيفي «ديوي العشري» و«مكتبة الكونجرس» لم يأخذا صفة العالمية إلا بعد أن تم تطويرهما من قِبَل المكتبيين العرب والمسلمين في شتى أنحاء العالم. لمواجهة القصور والإهمال المتواجد في بنية هذين التصنيفين، ولاسيما تصنيف «ديوي» والذي هو أكثر تحيزًا الأمر الذي قد لاقى قبولاً واسعًا في مكتبات العالم الإسلامي. فعلى مستوى العالم العربي قام «محمود الشنيطي» في مصر ضمن رسالته لنيل درجة الدكتوراة بتغيير في الرمز 200 الديانات فوضع الإسلام بين الرمز 210 و269، كما وضع المسيحية تحت الرمز 270 و289 وأبقى الديانات الأخرى والمقارنة في الرمز 290 و299[١٩]. وفي السعودية قامت جامعة الملك عبد العزيز بترجمة الطبعة الثامنة عشرة من تصنيف «ديوي» إلى العربية، مع تغييرات في الرموز الخاصة بالإسلام، والفلسفة الإسلامية، واللغة العربية، وآدابها، والتاريخ الإسلامي، وتاريخ المملكة العربية السعودية[٢٠]، ومثلها تمت محاولات أُخرى كثيرة في كل من: الكويت والعراق، وعلى المستوى الفردي. أما على مستوى العالم الإسلامي فقد قام مركز طهران للكتاب Tehran Book Processing Center بتعديل في كل من الرموز 297 الإسلام، و491.431 اللغة الفارسية، و891.431 الأدب

---

(١٩) طبعت هذه الرسالة في كتاب: محمود الشنيطي، **موجز التصنيف العشري**، القاهرة، د. ت.

(٢٠) جامعة الملك عبد العزيز، **التصنيف العشري**، جدة: الجامعة ـ عمادة شؤون المكتبات ١٩٧٧.

الفارسي، و991.431 تاريخ إيران[٢١]. وفي باكستان قام اتحاد المكتبات الباكستانية Pakistan Library Association بالتعاون مع جامعة كراتشي University of Karachi بتوسعة الرموز 297 الإسلام، و491.439 اللغة الأُردية، 439 واللغات المحلية، 891 الأدب الأردي[٢٢]. وبالمثل تمت محاولات مشابهة في كل من: تركيا، وبنجلاديش، والهند، وماليزيا، وأندونيسيا. علاوة على العديد من المحاولات الفردية التي قام بها مكتبيون آخرون[٢٣]. ولقد استمرت محاولات التعديل في التصانيف الغربية وترجمتها في العالمين العربي والإسلامي قرابة خمسين عامًا كاملة، نالت خلالها اهتمام اللجنة الخاصة بتصنيف «ديوي العشري»؛ وعلى أثره قامت اللجنة بعمل مسح شامل لهذه المحاولات ودراستها، وتبنيها في الطبعات المعدلة للنظام. وقد تمت مناقشة دراسة لدرجة الماجستير تناولت تحليل ومقارنة التعديلات العربية في تصنيف ديوي[٢٤].

إنه مما لا يدعو للشك أن محاولات التعديل والترجمة هذه كانت لضرورة ملحة استدعتها الأوضاع المتردية للمكتبات في العالمين العربي والإسلامي في ذاك الوقت. ولكن ما لم ينتبه له هؤلاء المكتبيين أن رسالة الإسلام عالمية، والحضارة الإسلامية عريقة، ولا يمكن لمثل هذه الرسالة وتلك الحضارة أن تحشر في تفريع ضيق من أي تصنيف، حتى ولو تم توسعة هذا التفريع إلى أي درجة. فالمسألة ليست إيجاد مكان للموضوعات

---

(٢١) TEBROC, Cataloging Department, *Dewey Decimal Classification and Relative Index,* (Tehran: Institute for Research & Planning in Sciences and Education, 1971).

(٢٢) Hajj Muhammad Shafui, *Intezam-e-Kutub Khana* (Karachi: Abbasi Litho Press, n. d.).

(٢٣) Sayed Riazuddin, «Problems of Classification of Books on Islam in Planning Information Strategy for the Muslim World», *3rd. Congress of Muslim Librarians and Information Scientists* (Istanbul, 1989), pp. 338-373.

(٢٤) هدى إبراهيم كونه. **التعديلات العربية للتصنيف العشرى لديوى: دراسة تحليلية مقارنة**. ـ الاسكندرية: كلية الآداب ـ قسم المكتبات والمعلومات ـ جامعة الاسكندرية ـ ماجستير ـ ١٩٩٢.

الدينية أو التاريخية أو اللغوية ضمن تصنيف عالمي، وإنما هي قضية عقيدة، وفلسفة فكر، تحددت ملامحها من خلال عقيدة الأمة أولاً، ثم تراثها ثانيًا.

النظرية الإسلامية للتصنيف في مفترق الطرق

إن ما ذكرناه سابقًا يؤكد حقيقتين: **الأُولى**: هي أن أي محاولة لتعديل أو ترجمة نظام تصنيف غربي تمت للتعامل مع الإنتاج الفكري الإسلامي في مكتبات العالم الإسلامي، محاولة غير موفقة، لأنها نقلٌ لصورة حياة عقلية لأمة من الأمم، تختلف فكرًا وثقافة ومنهجًا عن **الأُمّة الإسلامية**، والحقيقة الثانية؛ هي أنه لا يمكن أن تكون هناك خطة تستطيع أن تحقق العالمية، مع أخذها في الاعتبار عقيدة كل شعب وحضارته، وفكره، وبالتالي فإن كل المحاولات التي تستهدف إيجاد البديل ستكون ذات منظور محدد متحيز للواقع الفكري الحضاري.

ولقد حدثت في منتصف السبعينيات صحوة فكرية لا تُنكر لدى المسلمين، كان من ثمارها إنتاج فكري ضخم، كان محوره أسلمة العلوم في شتى المجالات. كما نشأت من خلال عملية الأسلمة هذه علوم جديدة مثل: الاقتصاد الإسلامي، وعلم الإنسان الإسلامي، وهي وإن كان لها جذور من قبل، إلا أن الإنتاج أكبر من أن يستوعبه أي من أنظمة التصنيف الغربية المتبناة في المكتبات العربية والإسلامية، سيما وأن حركة إحياء التراث وتحقيق المخطوطات كانت هي الأُخرى محورًا موازيًا لعملية الأسلمة.

وأمام هذا الوضع نادى المكتبيون في العالمين العربي والإسلامي في مؤتمرات عديدة بوضع خطة يمكن بها التحكم الببليوغرافي في الإنتاج الفكري المتزايد[٢٥]، وإنشاء تصنيف أساسه العقيدة الإسلامية، ويأخذ في اعتباره العادات، والتقاليد الاجتماعية والتاريخية للأُمّة[٢٦]، فكانت هناك

---

(٢٥) Syed Ali Hashimi, Universal Bibliographic Control of Islamic Literature, *2nd Congress of Muslim Librarians and Information Scientists,* Istabul, 1989, pp. 273-381.

(٢٦) A. Sabzwari, «Universal Islamic Classification», *Pakistan Library Bulletin,* 13 (2), p. 19.

اقتراحات قصدت إنشاء «مركز تحكم ببليوغرافي دولي» لإنتاج الفكر الإسلامي[٢٧]، وأُخرى قصدت تحقيق «نظام تصنيف إسلامي عالمي»، إلا أنه للأسف الشديد لم تزقَ أي من هذه المحاولات إلى المستوى الدولي. أما على المستوى الفردي فقد كانت هناك محاولات أُخرى نخص بالذكر منها محاولة «عبد الوهاب أبو النور» الذي قام في دراسته للماجستير والدكتوراه بوضع تصنيف لعلوم الدين الإسلامي كجزء من الخطة العربية للتصنيف. ولقد أشار «أبو النور» في خطته إلى التحيز الواضح في أنظمة التصنيف الغربية وعدم ملاءمتها لمكتبات العالم الإسلامي، لاختلاف المنطلق العقائدي والفكري. وفي هذا اختلف «أبو النور» عن سابقيه ممن قاموا بتعديلات في تصنيف «ديوي»، حيث كان منطلقهم هو: أن إهمال الموضوعات العربية والإسلامية في التصانيف الغربية مرجعه قصور وليس تحيزًا. ويفترض أبو النور أن الدين الإسلامي هو أحد الأقسام الرئيسية في خطة التصنيف العربية العامة، ولذلك فهو يحتل الرموز ما بين ١١ ـ ٩٩. أما الأرقام الاصطلاحية للدين الإسلامي، فقد أعطى لها الحروف الهجائية العربية. وتعتمد خطة أبو النور على أساس التحليل الوجهي. فهو يعطي أرقام تصنيف بسيطة للموضوعات البسيطة، أما الموضوعات المركبة فيتم تكوين عناصرها من خلال الربط بين العناصر البسيطة وعلامات الربط. وبهذا تعتبر محاولة أبو النور خطوة طيبة في سبيل تصنيف عربي وإسلامي. وقد جاء تطبيق خطته في تصنيف مقالات الدوريات التي تضمها ببليوجرافية علوم الدين الإسلامي التي نشرتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم[٢٨].

إن المشكلة الحقيقية التي تواجه المكتبيين العرب والمسلمين الآن هي

---

(٢٧) Mumtaz A. Anwar, «Towards an Universal Bibliographic System for Islamic Litrature», *International Library Review, 15* (3), 1983, pp. 257-261.

(٢٨) عبد الوهاب عبد السلام أبو النور. **التصنيف الببليوجرافي لعلوم الدين الإسلامي**. ـ القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٧٣.

أن الإنتاج الفكري الإسلامي يتزايد زيادة مطّردة يصعب معها التعامل مع أنظمة التصنيف الغربية المستخدمة في مكتبات العالم الإسلامي، ومن ناحية أُخرى فإنه مع زيادة حجم المحتوى الفكري المطبوع في هذه المكتبات واستمرار هذه الزيادة سيصعب على أي مكتبة أن تقوم بتغيير نظامها كليًا؛ لما يستلزمه هذا الأمر من نفقات ومجهود بشري ضخم ولا سيما أن خطط التصنيف المقترحة التي تتم في هذا المجال هي مجهودات أفراد وليست مؤسسات. إن مثل هذه المشكلة تضع أي خطة لتصنيف إسلامي أمام مفترق الطرق؛ إما الاستمرار في الخطأ، أو التغيير المكلف، ولكن الأمر أعمق من هذا وأخطر، بل يستحق من المكتبيين المسلمين أن ينظروا إليه كمهمة دينية لا تقل عن تلك المهمة التي يقوم بها المكتبيون الأمريكيون.

* * *